تأمّل في معاني ميلاد الرّبّ يسوع

مع الأب إبراهيم سعد

٢٠١٥/١٢/١

نبدأ اليوم بالتّفكير عاليًا بمعاني الحدث الّذي اقترب وهو ميلاد الرّبّ يسوع.

عندما قرأتُ قصة آدم وحوّاء في التّكوين، أدركتُ أنّه من الممكن القيام بمقارنة بين آدم وحوّاء في العهد القديم، وبين يوسف ومريم في العهد الجديد. إذ نلاحظ في قصّة آدم وحوّاء، وجود الله وآدم وحوّاء وإبليس (الحيّة)، أمّا في قصّة العهد الجديد فنلاحظ وجود الله، يوسف، مريم، والملاك. في قصّة آدم، وحوّاء الّتي هي من ضلعه، وهما واحد، يأتي إبليس وَيهمُس في أذن حوّاء حقيقةً تجهلُها "تأكُل من الثَمَرة وتَملُكُ قُدرة الله"، وهذه هي الحقيقة بالنسبة إلى إبليس. فنَتَج عن ذلك تمرُّد على الحُبّ وليس على الله، لأنّ العلاقة بين الله وَبين الإنسان هي علاقة حبّ، وليست علاقة سيادة، والدّليل أنّه ملّكَه الكوْن. أمّا في قصّة مريم ويوسف، فقد أَوصلَ الملاكُ بُشرى تبنّتها مريم، نتَجَ عنها طاعة "ها أنا أمةُ الرّبّ"؛ فلماذا نتجَ مع حوّاء تمرّد على الله؟ لأنّ مريم لم تُدخِل عنصُرًا ثالثًا إلى علاقتِها مع الله، عندما أتى الملاك بحقيقةٍ من عند الله. أمّا حواء فأدخلت عُنصُرًا ثالثًا في العلاقة بينها وبين الله. وهذه هي مشكلة الحُبّ. فإذا أدخلتَ عنصرًا ثالثًا إلى الحُبّ حصلَتْ العداوة، فينفصل النّاس بعضهم عن بعض. مريم قبِلتْ الحقيقة من الملاك المتكلّم باسم الله، أمّا حوّاء فأدخلت عُنصرًا ثالثًا ليس من عند الله، وتبنّتْ كلامًا غير كلمة الله، فدخَلَتْ في حالة التّمرّد على الحُبّ.

خطيئة آدم وحوّاء هي خطيئة الشّكّ بأنّ الله يخفي أمرًا يفيدها، لذلك جاءت الحيّة، وأبلغتها بأمرٍ يخفيه الله عنهما، عِلمًا أنّ الحُبّ بطبيعته يجعل المحبوب أهمّ من الّذي يحبّ، ولا أحدًا يحبّ إلّا إذا اقتنعَ أنّ الّذي أمامه أهمّ منه. فالحُبّ بطبعه يجعل المحبوب سيّدًا على الحبيب، بإرادة الحبيب. وعندما أحبَّ الآبُ الإنسان، جعله سيّدًا وملكًا بسبب الحُبّ. والحُبّ جعلك مثل الله، على صورته ومثاله. وعندما تعتبر أنّ الله أخفى عنك شيئًا حتّى لا يجعلك على مثاله يختَلُّ الحُبّ، فهو عندما خلقَكَ جعلَكَ مثله، فالشّيطان إذًا هو كذّاب مِن بداية التّكوين، وكذّابٌ يعني وهمٌ. لذلك انقطعت

العلاقة بين آدم وحوّاء بسبب التّمرّد، ونتيجة ذلك وصلا إلى الخجل من لا شيء. أمّا مريم فكانت تملك ما تخجل به، ولكنّها لم تخجل، مع أنَّها امرأة غير متزوّجة وحامل، وهذا عارٌ وإدانة بشريّة، ولكنَّها لم تخجل، لأنّها أبقتْ علاقتَها بالله جيّدة مِن دون أن يدخلها عنصرٌ ثالثٌ يفصل بينهما، فنَتجَتْ عن ذلك "الطّاعة".

الطّاعة لله تعني أنّ مَن أطاع، فقد فهم حُبّ الآخر له. مريم أطاعت بقولها: "ها أنا أمةٌ للرّب"، فلم يعد لديها سببٌ لتخجل به. أمّا آدم فتبنّى النّظريّة ووقع في حالة التّمرّد لتشويه العلاقة، لكنَّ يوسف، بدأ أوّلاً بالتّفكير، ثمّ كانت نتيجته أنّه أخذ امرأته أي قَبِلَ ما قاله له الملاك في حلمه.

كان لآدم وحوّاء ابنان: قايين وهابيل، فقتل قايين أخاه هابيل. أمّا من جهة مريم ويوسف فنتج ولدٌ يُدعى يسوع المسيح، ليخلّص العالم من خطاياه ولا يقتل أخاه. يُمكننا أن ندرك منذ البداية نهاية الأمور، فقد كان همّ آدم وحوّاء أن يبقيا ولو على أسس إلغاء بعضهما، أمّا في العهد الجديد، فالهمّ الوحيد كان بقاء الآخر ولو على أساس إلغاء نفسه.

اختلف المنطق، فليس لفّ هذا المولود بأقمطة بيضاء عند ولادته وكأنّه ميّتٌ، صُدفة. فهو منذ ولادته أدركَ رسالته، لأنّه من المستحيل أن تبدأ القصّة بالحُبّ، وألّا تنتهي بدفع الثّمن مِن قبل مَن يُحِبّ، فيكون المحبوب هو الشّخص المستفيد، لكنّنا نلاحظ أنّ في هذه الولادة بيّن لنا يسوع العكس.

تبدأ قصّة الميلاد بمنطق نهاية هذا المولود. فولادة يسوع المخلّص ملفوفًا بأقمطة بيضاء يعني أنّه مولودٌ ميّتًا. ولا نستطيع أن نفهم الميلاد، بمعزل عن سرّ الفصح، لذلك في الفَنّ واللّيتورجيا، في الأيقونات نجد الميلاد في المغارة، أمّا في الإنجيل فينعدم ذكر وجود مغارة، فبالرّسم القديم رسموا المغارة على أوّلها مريم ويوسف واقفَين، وبالدّاخل سوادٌ حالك ووجود طفلٍ يشعّ منه بياض النّور، وهذا تجسيد لصورة القبر، حيث رسموا يسوع خارجًا من القبر ويشعّ نوره أمّا القبر فكان مظلمًا.

عندما وُلد يسوع كان بجانبه آدم وحوّاء أي يوسف ومريم، فتنتهي في الميلاد بنهاية قصّة وتبدأ أخرى. تنتهي في عيد الميلاد قصّة ميلاد الربّ يسوع وتبدأ قصّتك أنت، إذًا أنت شخص العيد، أنت عنصرٌ أساسيٌّ في القصّة، فعندما تنظرون إلى المغارة مِن اليوم وحتّى الميلاد ترَونَ صورتكم، وعندها تعلمون الدّعوة لهذه الولادة. ولكن إذا كنتم راغبين بهذه الولادة فعلينا إعادة تأسيس القصّة: وجود الله، الإنسان وعنصرٍ ثالث. وإذا تبنّيت حقائق العنصر الثّالث انقطعت العلاقة بالله، وعُدت إلى قصّة آدم من جديد. هنا يظهر صبرُ القدّيسين، إذْ يأتيك الملاك ويبشّرهم بأنّ الله، اليوم، إتّخذهم عذارى له، بمعنى القبول أنّ يمرّ الخلاص بواسطتهم إلى الآخرين، والسّماح بمشروع الله أن يصِل إلى العالم. فإذا رفض القدّيس هذه النّظرّية كان من جماعة اليهود وهيرودوس الّذين رفضوا وجود ملِكَيْن: رفضوا يسوع، وقبلوا هيرودوس. وحتّى عند الصّليب، رفضوا يسوع وتبنّوا براباس. فقصّة آدم وحوّاء لا تنتهي إذًا إلاّ إذا قبلتَ أنّ الله يحتاجك لتحقيق خلاصَ غيرْكَ من خلالك.

أنت لا تتذكّر العيد إلاّ عندما ترى الزّينة في الشّوارع، فقد ورّطت نفسك أيّها الإنسان في أن تقوم بأعمال تذكّرك بالعيد، لكنّ الّذي يحصل أنّك تتذكّر العيد وتنسى المولود، يُنسيك ضجيج العيد المغري ولهوْتِه مواقفَك، أمّا إذا تذكّرتَ المولود، فأنتَ أمام الموقف وهنا السّؤال: هل تريد أن يمرّ الخلاص من خلالك للآخرين؟ عليك اختيار شخص غير مُدرج على لائحة قلبك. إذًا، أنت أمام تحدّي أن تلتزم بالاهتمام بشخصٍ تشاركه الفرح وتشعره أنّ مشروع الله هو له، ذلك الشّخص الّذي لا يصدّق أنّ الله أتى ليهتمّ به، رغم تخلّي النّاس عنه، فتشكره في النّهاية لأنّك بسببه دخلت أيقونة المغارة. أمّا الشّخص الّذي أنت على خصومة معه لأسباب تعنيك أو تعنيه، تكون الخطيئة تتلاعب بكما لأنّ الخصومة تتمتّع بالجفاف الّذي يؤدّي إلى قلّة محبّة، الّتي هي إغراء الخطيئة وحالة من حبّ الإلغاء. وعلينا هنا تصحيح قصّة قايين وهابيل، لذلك يقول الآباء لكي تتحرّر من خطيئتك عليك أن تتصدّق على الفقراء، لأنّها الطّريقة الوحيدة لتساعدك على الخروج من "الأنا"، وعندها تتكسّر الحواجز بينك وبين الجميع.

إذًا أن تتبنّى شخصًا في الميلاد لا يعني مساعدته أو إعطاءه المال بل يعني إفراح قلبه، فبالفرح تدخل إلى أعماقه، وتقيم شراكة بينكما. ويعود هذا العمل بإفادةٍ عليك لأنّك عندما تُفرح شخصًا حزينًا، تكسب فرحًا عظيمًا لم تكتسبه مِن أحد مِن قبل. وكم هو جميل أن ترى شخصًا أدخلتَ الفرح إلى قلبه! فعندها تتكلّم عن حلاوة الفرح، فبسمتُه تصبح إنجيلاً جديدًا في وجهك، تكتسب من نظراته جذورًا، فتختلف دقّات قلبك. يعطيك هذا العمل دافعًا ورغبةً لتنقل الفرح إلى أكثر من شخصٍ.

استفيدوا في هذا العيد من كلّ الخرافات كقصّة "بابا نويل"، إذ يحرص الأهل والأولاد على عدم الكشف عن هويّة "بابا نويل"، وافعل الخير أنت أيضًا من دون أن تُعرف حتّى لا تفتخر وتتباهى بنفسك، إبقَ مُستترًا. كما الولد يفرح بـ"بابا نويل"، كذلك يَفرح مَن تقوم معه بعمل خير، بالعيد، وبصاحب العيد. الحُبّ سِرٌ لا يُفهم ولا يُدرك.

نلاحظ في قصّة الميلاد وجود الحيوانات كالحمار والثّور، وأصل هذه القصّة من العهد القديم حيث الحمار والثّور يعرفان صاحبهما، أمّا إسرائيل فلم تعرف الرّب، وهذا يعني أنّ المسيح المولود يمكن أن يتعرّف إليه الكثيرون ويصبحون شعبه، وأنتم الّذين تظنّون أنّكم شعبه تصبحون خارج الحظيرة، لذلك هذا الموضوع يتمتّع بوعي ويقظة كبيرة. كما يبدأ النّاس بزراعة القمح والعدس في عيد البربارة، وهذا التّقليد، يزرعون القمح لأنّ القدّيسة بربارة هربَتْ وتخبّأت بين سنابل القمح، ولكن هل رأيتم مرّة القمح ناميًا في شهر كانون الأوّل؟ ويلبس النّاس في عيد البربارة وجوهًا ويزورون البيوت، وتفرحون بهذا الأمر، ثمّ تعودون إلى المنزل وتأكلون القمح، وهذا يعني أنّنا كنّا في كنف المنزل الأبويّ فقرّرنا الخروج لمعرفة ما يمكننا أن نحصل عليه من منازل النّاس، لكنّنا لا نخرج على حقيقتنا بل نلبس الأقنعة. ونعود في النّهاية إلى البيت مدركين أنّنا

لا نملك سوى هذا المنزل، ونأكل القمح الذّي هو صورة ورمز ليسوع المسيح القائم من بين الأموات. ندخل في عيد البربارة بقناعة أنّه مهما جُلنَا الدّنيا ولبسنا الأقنعة، لا يمكننا أن نُخفي حقيقتنا أمام الله، لذلك أين نذهب وكلمة الحياة عندك يا الله؟ نزرع القمح لنقول إنّنا أجسادٌ تنمو، فالقمح عندما ينمو، نجمعُه ونطحَنُه ثمّ يُقدَّم قربانًا للمسيح في القدّاس، فنبدأ بالتّفكير في الميلاد من عيد البربارة. إذ هذه هي دعوةٌ للتفّكير في تحضير نفسِكَ ووضع صورتكَ في المغارة.

علينا أن نُطلق على "الميلاد" اسم: "ميلاد الرّب يسوع" أوّلاً، ثمّ ميلادي، إذًا، هذا العيد هو متحرّك وغير ثابت، وكلّ متحرّك ليس بمائتٍ، وكلّ متحرّك ليس بصنمٍ، فبذلك تكونون قد حرّرتم العيد من الصّنميّة.

ملاحظة: دُوّنت المحاضرة من قبلنا بتصرّف.